موقف الفكر الإسلامى من الفلسفة اليونانية

obeikan.com

obeikan.com

موقف الفكر الإسلامى من الفلسفة اليونانية

أقرت المجتمعات الإنسانية — على اختلاف مذاهبها : السياسية ، والعقدية ، والاقتصادية — حق الملكية الخاصة ، رغم ما بينها فى تحديد مجال هذه الملكية ؛ إذ يسود فى كل بقاع الأرض مبدأ : أن ما للإنسان من متاع وأموال لا يجوز لأحد اغتصابه ، فليس لإنسان ، كائن من كان ، أن يأخذ ما ليس له ، و إن ساعدته الظروف على أن يأخذه عنوة ، فإنه يظل فى دائرة عدم الشرعية ، فلا يُقِرّه قانون ، ولا يرضى به ضمير الجماعة الواعى ، المدرك للحدود الفاصلة بين حقوق الأفراد والجماعات ، بل إن التنازع والتطاحن على الملكية والسيطرة يُعْطِى الانطباع بأن هناك أموراً لا يملكها الإنسان ، ولا يجوز له — على الأقل فى رأى أحد الطرفين المتنازعين — الاستحواذ عليها ، أو الانفراد بمنفعتها دون الآخرين .

يسرى هذا المبدأ على كل ما يحيط بالإنسان ، وتحرص كل المجتمعات المتحضرة - بل والبدائية فى غالب الأحيان — على تلقينه وتعليمه للأطفال ، بل وتذكير الكبار به بين الحين والآخر ، غير أن هناك مجالاً واحداً تعارفت البشرية على شيوعه بين شعوبها ، فلا يُحْرَم منه إنسان ، ولا يحول بينه وبين طالبه أحد ، بل إن صاحبه يحرص على أن يصل إلى كل الناس ، بل يزداد سروره كلما رأى الجماعات البشرية تسعى للحصول عليه ، ذلكم هو الإنتاج العقلى ، وهو ما تسطره أقلام العلماء والفلاسفة ، هو العلوم الإنسانية بجميع فروعها . فالعلم - كما قالوا — لا وطن له ، وصاحبه لا يحرص على احتكاره ، لأن من طبيعته الانتشار ، ومن لوازمه أن يصل إلى الناس ، فهو لا يخرج من منطقة الإبداع فى الإنسان — سواء كان ذلك فى صورة التعليم والتلقين الشفهى ، أو مسطوراً بالقلم — إلا بقصد توصيله للآخرين ، وانتفاعهم به ، وتصرفهم فيه تصرفاً مطلقاً ، فلا أحد يحرم عليه استعمال نتائجه فى جميع مجالات حياته . وما نسمعه اليوم من تحريم نقل التكنولوجيا — وهى من نتاج العلم المشاع بين الناس جميعاً — من وطنها إلى الأوطان الأخرى ، فلا يمثل القاعدة التى يجب أن يكون عليها وضع إنتاج العقل البشري ، من أنه يجب أن يكون فى متناول كل بنى

الإنسان ، لأن هذا الإجراء – وهو تحريم انتقالها – يمثل حجر عثرة فى سبيل تقدم الشعوب ، لجأ إليه أنانى ، لا يحب إلا بنى جلدته ، أو جبار يريد أن يسيطر بامتلاكه لهذه التكنولوجيا على مقادير الشعوب الأخرى ، ويحدد مصائرها ، أو مستغل يميل إلى أن يمتلك وحده ما يدره هذا الجانب من أموال ، مضحياً فى سبيل ذلك بالقضية التى تهم البشرية جمعاء ، ألا وهى العمل على تقدم كل المجتمعات الإنسانية ، حتى لا تظل الفجوة بينها عميقة .

ورغم القيود التى وضعها أمثال هؤلاء الناس أمام انتشار الإنتاج العلمى ، فإن طبيعة وضعها فى حياة الأمم والشعوب سوف تتغلب على هذه القيود ، لأن الانتشار خاصية من خواص العلوم ، فلابد أن تكون الغلبة لها .

كذلك ترفض مجتمعات قبول بعض الاتجاهات الفكرية ، فتقيم الحواجز بينها وبين انتشارها بين المواطنين ، وتتخذ من الإجراءات ما يحول بين الناس وبين معرفة هذه الاتجاهات ، إما خوفاً على عقيدتها ، أو حفاظاً على سلطان المؤسسات الثقافية والتعليمية فى بلدها ، لأنها ترى أن هذه الأفكار ستقوض من سلطانها على نفوس الناس ، فذلك أيضاً وضع غير طبيعى – خاصة فى عصرنا الحالى ، حيث ذابت الحواجز الثقافية والإعلامية بسبب التقدم الهائل فى مجال الاتصالات اللاسلكية ، سواء كانت مسموعة أو مرئية ، أو فضائية – ينبغى تركه ، كى يعو الأمر إلى وضعه الطبيعى ، ويأخذ انتشار الأفكار بين المجتمعات البشرية طريقه السليم .

فإذا وضعنا هذه المسألة بأبعادها المختلفة أمام الإسلام ، لم نجد فيه إلا حثاً على طلب العلم وتعليمه ، وتحذيراً من كتمان الحكمة والرأى الذى فيه منفعة للناس ، ففى مجال طلب العلم يقول رسول الله ﷺ : " **طلب العلم فريضة على كل مسلم (ومسلمة)** " [٤٧] ، ويقول : " **الحكمة ضالة المؤمن ، فحيثما وجدها فهو أحق بها** " [٤٨] ، واشتهر بين المسلمين قولهم : " **أطلبوا العلم ولو بالصين** " .

كما ينفى القرآن الكريم أن يكون هناك مساواة بين من يعلم ومن لا يعلم ، فيقول : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر : ٩] ،

---

[٤٧] سنن ابن ماجة : جـ ١ صـ ٨١ رقم ٢٢٤

سنن الترمذى جـ ٥ صـ ٥١ رقم ٢٦٨٧

وفى مجال وجوب تعليم الآخرين حذر الله المسلمين من أن يكونوا مثل من يكتمون الحق ، لأن من يفعل ذلك يصيبه مثل ما أصاب هؤلاء الذين منعوا تعليم غيرهم ، فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٩]

هذا هو موقف الإسلام من قضية العلم والتعليم ، لا يُحَرِّم على المسلمين تعلم أفكار الآخرين ولو بعدت أوطانهم ، ويُحَذِّر من احتكار الإنتاج العلمى ، لأن مبادئه جاءت مطابقة للطبيعة البشرية ، ومن خصائص هذه الطبيعة أن يكون العلم كلاً مباحاً لكل الناس .

أثَّر هذا الاتجاه على المسلمين ، فانطلقوا يغرفون من منابع العلم فى كل مكان ، لا يمنعهم جنسيته أو عقيدته ، فأخذوا من الهند والفرس والإغريق وغيرها من شعوب الأرض على اختلاف نزعاتهم وتعدد أفكارهم . ويعنينا هنا أن نتحدث عن موقف الفكر الإسلامى من الفلسفة اليونانية .

بدأ الاتصال بين العرب واليونان قبل الإسلام ، إذ عندما أُغْلِقَت مدارس الفلسفة فى أثينا واضطُهِد الفلاسفة ، فر مجموعة منهم صوب الشرق ، حيث لعبوا دوراً كبيراً فى ازدهار المدارس الفلسفية التى نشأت فيه ، وخلفت مدارس اليونان فى حمل الفلسفة اليونانية .

كان العرب قبل الإسلام على اتصال بتلك المدارس ؛ إذ قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية فى العراق وما حوله ، فاتصل بثقافتهم بعض المهتمين بالثقافة من العرب مثل : الحارث بن كلدة ، ومن بعده ابنه النضر بن الحارث ، الذى يحكى عنه ابن أُصَيْبِعة فى كتابه : " طبقات الأطباء " بأنه اطلع على الفلسفة وأجزاء الحكمة .

كذلك أثبتت الأبحاث الحديثة بصورة قاطعة أن مراكز البحث الفلسفى كانت منتشرة فى العالم القديم الذى فتحه المسلمون ، وأن هذه المراكز لم يتوقف عملها العلمى بعد الفتح الإسلامى ، بل استمر الاتصال بها فى ظل الدولة الإسلامية ، فهم يحدثوننا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان من أعلم قريش بفنون العلوم ، وكان له كلام فى صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيراً بهذين العلمين ، متقناً لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته . وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان ، يقال له : "مريانوس" ، وله فيها ثلاث رسائل ، تضمنت إحداها : ما جرى له مع "مريانوس" ، وصورة تعليمه منه ، والرموز التى أشار إليها .

ويقول ابن النديم : " إن خالداً عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة ، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ، وهو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم ، وكتب الكيمياء . ولا ننسى أن المدارس الفلسفية فى أنطاكية ، وحران ، والرها ، ونصيبين استمرت فى تأدية عملها العلمى فى ظل الدولة الإسلامية ، كما لا ينسى أحد ما بذلته الدولة الإسلامية من جهود فى مجال ترجمة التراث اليونانى ، بل لا ينبغى لأحد أن ينكره ، أويتناساه ، لأنه عمل علمى لم يحدث مثله فى تاريخ البشرية قاطبة .

من هذا نرى أن الثقافة اليونانية كانت محل عناية المسلمين فى الأقطار المختلفة ، أخذوا منها وتعلموها ، حتى ممن لم يكن على دينهم ، بل إنهم تعلموا منها ما لم يوافق دينهم ، فيذكر ابن كثير أن علوم الأوائل – أى الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الإسلامى – نُقِلَت فى المائة الأولى . ثم يزيد هذا الكلام توضيحاً ما نقله إلينا الشيرازى فى كتابه "الأسفار الأربعة" : أن المتكلمين الأوائل فى عهد بنى أمية عرفوا الفلسفة اليونانية حين نُقِلَت بعض كتبها إليهم ... ويقول : إن هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التى عرفوها ، وجعلوها أساساً لفلسفتهم .

ويلاحظ الباحثون فى كتابات المتكلمين الأوائل من أمثال أبى الهديل العلاف ، وهشام بن الحكم وغيرهما معرفة واسعة بالفلسفة اليونانية ، وتناولاً لمصطلحات فلسفية ، مما يدل على أن الاتصال بين المسلمين وبين الثقافة اليونانية كان قوياً على الحياة العقلية فى المجتمع الإسلامى . فقد

وجدت فى ظل الدولة الإسلامية مدارس للفكر اليونانى كانت استمراراً لمدارس ما قبل الإسلام ، كما نجد فيها حَمَلَة لفلسفة كانوا خلفاء الإغريق ومن أتوا بعد الإغريق من الرومان والمصريين .

أصبحنا نجد بعد انتشار الإسلام ديناً واحداً ؛ بجوار فلسفة وسياسة . وأصبحنا نرى أيضاً مجالس لتعليم الدين الإسلامى ، وللتتلمذ فى فهم القرآن والسنة بجوار مجالس أخرى للعلم اليونانى والفلسفة اليونانية .

فما هى يا ترَى أسباب قبول الفكر الإسلامى للفلسفة اليونانية ؟
أهو الميل العقلى وحده لدى بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة ؟
أكان السبب فِى قبول هذا البعض للآراء الإغريقية فى الإلهيات ، أنها وليدة العقل الإنسانى ؟
أم هناك شيء آخر وراء هذا الميل دفعهم إلى قبولها ؟

إذ الرغبة العقلية لدى إنسان ما تساعد فحسب على تناوله عملاً عقلياً ، وعلى النظر فيه ، وعدم طرحه بادئ ذى بدء ، ولكنها قد لا تكفى وحدها فى تعليل قبوله لهذا العمل العقلى والحرص عليه ، أو التأثر به ، فوجود هذه الرغبة سبب مهيئ فقط للقبول ، وقبول المسلمين نفسه للآراء الإغريقية حينئذ ، ليس لأن مَنْ قَبِلَها منهم كان ذا ميل عقلى فحسب ، بل لأسباب أخرى ، أهمها : الدقة التى كان عليها المنطق الأرسطى وغيره من العلوم اليونانية . أثرت هذه الدقة فى نفوس المسلمين العرب التى لم تألف قبل ترجمتها أسلوب الإقناع ، ولم تتعود إلا سعة الخيال ومرونته ، وتموجه فى التصوير .

لكن غلوهم فى الاقتناع بهذه الدقة فى المنطق والرياضيات جرهم إلى الاعتقاد فى عصمة العقل الإغريقى فى المجالات الأخرى ، فدافعوا عنه بكل الطرق ، وفى هذا يقول الغزالى : " وقد تولد عنها — أى العلوم الرياضية — أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلسفة ، ويحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم .

كانت هذه الدقة أشبه بإغراء العقل الإسلامى على الإقدام على قبوله للناحية الإلهية والإنسانية من الفلسفة الإغريقية ، وتناول ما فيها بالشرح والتوضيح ، ومحاولة التوفيق بينها – وخاصة فيما يتعلق بالإلهيات – وبين العقيد الإسلامية .

وقد اشتهر بهذا العمل الفارابى ، حتى أُطْلِق عليه : الموفق والشارح ، وكان متأثراً فى عمله هذا بمدرسة الإسكندرية ؛ إذ من المعروف أنه بعد أن نُقِلَت الفلسفة من أثينا وروما إلى الإسكندرية انصب العمل الفلسفى فى الفترتين اللتين عاشت فيهما الفلسفة فى مدينة الإسكندرية فى السبعة قرون الأولى بعد الميلاد على التوفيق والانتخاب ، وهو توفيق وانتخاب من مدارس فلسفية إغريقية ، وضُمَّ المنتخب بعضه إلى بعض فى وحدة واحدة مع ملاءمة بينه وبين ديانة شعبية ، أو بينه وبين المسيحية .

وعندما نُقِلَ مركز الفلسفة من الإسكندرية إلى أنطاكية ، ثم إلى بغداد كانت الفلسفة المنقولة عبارة من مزيج :

١. من عدة مدارس إغريقية ، وبالأخص من مدرستى : أفلاطون وأرسطو .
٢. ومن ديانة أخرى شرقية [كالزرادشتية ، والبوذية ، والبرهمانية] ، أو مسيحية .

وإذا قلنا : إن طابع الفلسفة المنقولة كان مزيجاً من الأفلاطونية ، والأرسطية ، والرواقية ، والتصوف الشرقى ، لم يكن ذلك القول غريباً ؛ فهى فى الواقع تمثل كل هذه المدارس ، وكل الاتجاهات الثقافية ما بين إنسانية ، ودينية ، ووثنية .

وعندما وصلت الفلسفة عن طريق المدارس المسيحية فى الشرق الأدنى إلى المسلمين وصلت إليهم ، وهى تجمع كل هذه العناصر ، لكنها وصلت إليهم مغلفة بغلاف آخر . وصلت إليهم وقد علتها مسحة صوفية شرقية ، وفيها تأييد "بوحدة الأول" وبساطته ، ولهذا سُرَّ بها المسلمون أول الأمر وقدروا فيها "عصمة الحكمة" .

ومن أجل ذلك استبعدوا أن يكون للحكماء الإغريق مقصد يتعارض مع الإسلام ، طالما يقولون : "بالوحدة" فى العلة الأولى ، وطالما يرون الزهد طريقاً لسعادة الإنسان ، وإن أعطى ظاهر عباراتهم ما يفيد هذا التناقض فى بعض الأحيان .

ولأن المسلمين استبعدوا هذا القصد من الإغريق ، حاولوا أن يوفقوا بين أفلاطون وأرسطو ، عندما تبدو بينهما معارضة ، كما حاولوا التوفيق بين فلسفتهما من جهة ، والإسلام من جهة أخرى ، إن أعطى ظاهر النصوص فى الجانبين نوعاً من التضارب بينهما : والفارابى واحد من مشاهير الفلاسفة المسلمين ، الذين ظنوا شمول "الحكمة" فيما نقل إليهم من الفلسفة الإغريقية ، والذين اعتقدوا : أن عظماء الحكماء من الإغريق يكاد يستحيل عليهم التضارب فيما يقولون ، وأن حكمتهم يستحيل عليها أيضاً : أن تختلف مع الإسلام ، عِلْماً بأن ما نُقِلَ إليهم ينطوى فى واقعه على التضارب ، فواقعه ذو ألوان عديدة كما بينا ذلك منذ قليل ، وهو ليس إلا مغطى ببريق يخدع من لم يقف على حقيقته .

ولحسن ظن فلاسفة المسلمين – ومنهم الفارابى – بالفلسفة الإغريقية ، وليقينهم بعدم تضارب الفلسفة مع الإسلام ، دخلوا التفلسف – وعلى الأخص الفارابى – على أساس "الجمع" بين الآراء الفلسفية ، و "التوفيق" فيما يبدو منها مختلفاً بعضه مع بعض ، أو مع الإسلام .

لا أريد أن أكثر من ضرب الأمثلة التى تبين جهد الفارابى فى التوفيق ، ولذا سأكتفى بذكر مثال واحد ، ألا وهو التدليل على وجود الله : ففى هذا المجال يستعير الفارابى من الأفلاطونية الحديثة طريقها فيما يسمى "بالجدول النازل" و "الجدول الصاعد" . وفى الحديث عن ذلك يستأنس بآية قرآنية ، وهى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت : ٥٣]

ونص حديثه :

" لك أن تلحظ عالم الخلق ، فترى فيه آيات الصنعة ، و لك أن تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود ، وتعلم أنه لابد من وجد الذات :

فإن اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد ،

وإن اعتبرت عالم الوجد المحض فأنت نازل

تعرف بالنزول : أن ليس..... ذاك ،

وتعرف بالصعود : أن ليس هذا ..هذا

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

وكان الفارابى يقول : هناك دليلان على وجود الله :

الدليل الأول : أن ننظر إلى المخلوقات ، أو إلى ما يسميه هو : بعالم الخلق ، وهو عالم يأتى بعد عالم الأمر ، أو عالم الملائكة ، وقبل هذا يكون عالم الربوبية ، أو عالم الوجود الإلهى ، فتشهد فى المخلوقات أن صنعة الله تدل على صانع لها ، وهذا الصانع هو الله .

الدليل الثانى : أن ننظر إلى "الوجود المحض" ، أى إلى الوجود من حيث هو وجود ، فنصل من هذه النظرة إلى أن هناك واجب الوجود لذاته ، وهو الله تعالى ، وهو السبب فى وجود الممكن ، والممكن هو ما بعد الله من عوالم ، هو عالم الأمر أو الملائكة ، وعالم الخلق ، أو المخلوقات ، وبالأخص : الإنسان .

وهذا الدليل على وجود الله دليل تنازلى ، لأنه من وجود واجب الوجود بذاته : يعرف عالم المخلوقات . والعقل إذن فى هذا الدليل ينتقل من الأعلى ، وهو واجب الوجود بذاته ، أو الله ، إلى الأدنى ، وهو وجود واجب الوجود بغيره ، أو المخلوقات .

ثم يجعل الآية التى استشهد بها هنا تعطى الطريقين فى الجدل ، وهما : الصاعد ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ يشير فى تقديره إلى الجدل الصاعد . فأمارات الله فى عالم المخلوقات ، وفى النفوس البشرية تعطى الدليل على وجود الله الحق ، فهى صنعة ، وكل صنعة لابد لها من صانع ، والصانع هو الله تعالى : فهو دليل من الأدنى على الأعلى ، دليل المخلوقات على الله ، وعالم المخلوقات تَجَلٍّ لوجود الله ، فكأنه هو ...هو .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ يشير فى تقديره أيضاً إلى الجدل النازل ، وهو الاستدلال بوجود الله على وجود عالم المخلوقات ، فالله هو الخالق ،

وأمارة خلقه فى وجود هذا العالم ، فوجوده شاهد على وجود غيره ، وهذا دليل من الأعلى على الأدنى ، والوجود الأعلى غير الوجود الأدنى : ليس هذا ...ذاك ، وهذا التركيب الفلسفى للفارابى يتكون من عناصر ثلاثة :

١. العنصر الأرسطى ، وهو عنصر واجب الوجود بذاته ، والممكن بذاته ، وصلة كل منهما بالآخر .

٢. العنصر الأفلاطونى الحديث ، وهو عنصر توجيه الاستدلال بكل منهما على الآخر : على أن يكون مرة من الأعلى إلى الأدنى ، ومرة أخرى على العكس : من الأدنى إلى الأعلى ، مع تسمية وجه منها بالجدل النازل ، والآخر بالجدل الصاعد .

والتوفيق الذى ينسي هنا ، هو احتواء الآية بعمله الفلسفى على مضمون العنصرين الأوليين ، وكأن هذين العنصرين يكونان معنى الآية القرآنية . وكأن القرآن فى اعتباره يترجم عن الفلسفة ، وعملية التوفيق هى : عملية "مقدم" و "تالٍ" فى قياس منطقى أرسطى .

يجب ألا ينسى الباحثون فى هذا المجال أن عمل الفارابى – ومن نحا نحوه من الفلاسفة المسلمين – لا يمثل أى جانب من جوانب الفكر الإسلامى ؛ إذ من المعروف أن جمهرة علماء المسلمين لم يوافقوه على هذا المنهج ، حتى الذين قبلوا الفلسفة اليونانية استثنوا منها الجانب الإلهى ، لأنه لا يتفق مع العقيدة الإسلامية . وليس معنى أنهم لم يقبلوا هذا الجانب من الفلسفة اليونانية ، أنهم حاربوا من يتعلمها ، أو تعقبوه فى رزقه ، أو عمله .... لا ! وما يحدثنا به التاريخ من حرق كتب بعض الفلاسفة ، واضطهادهم ، فليس إلا حوادث استثنائية ، قامت بها مجموعة ، لا تعرف فقه الإسلام فى مجال حرية الفكر ، لأن حرب الفكر واضطهاده ليس من طبيعة الإسلام ، فهو الداعى إلى شد الرحال للتعلم ولو بالصين . فالعلم فى المجتمع الإسلامى كلأٌ مباح للجميع ، لا يمنع عنه أحد ، ولا تقيد حريته فى البحث ، لكن هذا لا يمنع أن تقوم مجادلات فكرية حول ما يتنافى مع المبادئ الإسلامية ، وذلك أمر لا يتنافى مع طبيعة الفكر البشرى ، فإنه يتصارع ويتناطح فى حدود مجال الجدل الفكرى . وهذا هو ما حدث فى المجتمع الإسلامى بالنسبة لمن رفضوا بعض

جوانب الفلسفة اليونانية . وأشهر مثال على هذا ما قام به حجة الإسلام الإمام الغزالى ؛ فقد صنف الفلاسفة إلى دهريين ، وطبيعيين وإلهيين ، ثم قال :

الصنف الأول : الدهريون ، وهم طائفة من الأقدمين : جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، فزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة .

الصنف الثانى : الطبيعيون ، وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عالم الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم التشريح ، أعضاء الحيوانات .

ثم بعد أن يبين دقائق بحثهم يحكم عليهم بالزندقة أيضاً ، معللاً ذلك بأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الإلهيون ، وقد ردوا على الصنفين الأولين من الدهريين والطبيعيين ، وأوردوا فى الكشف عن أخطائهم ما أغنوا به غيرهم عن القيام بهذا العمل ، إلا أنهم اسبقوا أيضاً من رذائل كفرهم وبدعهم بقايا ، لم يوفقوا للتخلص منها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا ، والفارابى ، وأمثالهما .

وعلى الرغم من أن الغزالى رمى الفلاسفة كلهم بالكفر والزندقة — سواء كان ذلك بسبب انحراف مذهبهم كله ، أو بسبب انحراف بعض آرائهم فى نظره — إلا أنه حين تعرض لفروع الفلسفة من : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية ، فإنه قبل جميع فروعها جملة — وإن هاجم بعض الاتجاهات فى كل فرع — إلا فرع الإلهيات ، فقد ذكر أن فيها أكثر أغاليط الفلاسفة ، وأرجع أخطاءهم فى هذا الفرع إلى عشرين ، كفرهم فى ثلاثة فقط ، وهى قولهم :

١. أن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .
٢. إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات.

٣. بقدم العالم وأزليته .

معللاً ذلك بأن أحداً من المسلمين لم يذهب إلى شيء من هذه المسائل الثلاث .

هذه الحملة التى قادها الغزالى ضد الفلسفة والفلاسفة ، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الأمر لم يتعد مجال الجدل الفكرى ، بدليل أن الفلسفة بقيت فى المجتمع الإسلامى ، وظلت تدرس فى جامعاته ومدارسه بعد الغزالى ، ولم تزل تدرس حتى اليوم ، مما يعطى انطباعاً بأن المسلمين لم يقفوا من الفكر الأجنبى موقف الرافض المعارض لتعلمه ، المحارب له بأساليب خارجة عن نطاق المعارضة الفكرية . وهذه هى روح الإسلام : حرية الفكر ، تعلماً ، ونقاشاً ، وتحليلاً ، ومحاورة ، ومعارضة الحجة بالحجة . فما يحمل من الأفكار خاصية الثبوت والدوام بقى فى المجتمع ورسخ فيه ، وما كان مهلهل الصورة ، ضعيف البنيان : ذهب واندثر . وتلك سنة الله فى خلقه ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

obeikan.com